تقرير

خليل حرب
Khalilharb66@gmail.com

حلف الناتو في الأردن: مخاوف من صراع إقليمي أكبر

ربما كان من الممكن ان يمر خبر اقامة "مكتب الاتصال" لحلف الناتو في الاردن مرور الكرام، لكن ذلك لم يحصل، اذ اثار سريعا تساؤلات ومخاوف عما اذا كانت الخطوة مرتبطة بمشهد الصراع الاقليمي - الدولي الاخذ في التوسع، خصوصا في ظل تطاير شرارات حرب الابادة الاسرائيلية في غزة

في تشرين الثاني 2023، بعد انفجار "طوفان الاقصى"، زار الملك الاردني عبدالله الثاني مقر حلف الناتو في بروكسل. زيارة الملك جاءت بعد نحو 3 اشهر على الاعلان عن النية لانشاء مكتب الاتصال في الاردن في البيان الختامي لقمة الناتو في ليتوانيا في تموز العام 2023. الان، وتحديدا في تموز الماضي، اعلن الحلف، على هامش قمته الاخيرة في واشنطن، انه سيفتتح مكتبه في عمان بهدف تعزيز "الشراكة الثنائية الاستراتيجية" بين الحلف والمملكة.

السؤال البديهي الذي طرحه كثيرون: ماذا يفعل حلف الناتو في قلب منطقتنا؟ عن اي عدو يبحث تحديدا الان، وهو الذي كان تشكل في العام 1949 لمواجهة ما كان يعتبر انه "خطر شيوعي" يمثله الاتحاد السوفياتي الذي كان من بين المنتصرين على النازية مع نهاية الحرب العالمية الثانية العام 1945.

منذ نهاية الحرب الباردة مع انهيار الاتحاد السوفياتي وحلف وارسو ، طرح العديد من السياسيين والخبراء تساؤلات حول جدوى الابقاء على حلف الناتو بعدما افترض كثيرون ان دوره كذراع عسكرية لمواجهة السوفيات، لم تعد ذات جدوى، مع تلاشي خطر العدو الرئيسي. لكن الحلف سرعان ما اعاد صياغة دوره وبلورة صورة الاعداء الجدد، (روسيا والصين وكوريا الشمالية وايران والارهاب الاسلامي) بل انه قرر الاستمرار في التوسع شرقا داخل الكتلة الشيوعية السابقة، ليقترب من حدود روسيا، وانشأ ايضا اليات تعاون مختلفة مع دول في اتجاه الجنوب، بما في ذلك اسرائيل، ومع الهند وباكستان والعراق وغيرها.

اتخذت الاهداف شكلا فضفاضا اكثر. مثلا في وثيقة للحلف العام 2022، حدد الحلف 3 اهداف اساسية له، وهي الردع والدفاع، منع الازمات وادارتها، والامن التعاوني. كما اكدت وثيقة الحلف على وجود قيم مشتركة بين اعضائه؛ وهي: الحرية الفردية وحقوق الانسان والديموقراطية وسيادة القانون، مع التاكيد على الالتزام بمقاصد ومبادئ ميثاق الامم المتحدة، واهمية الحفاظ على النظام العالمي القائم على القواعد. اصبح الهدف الاسمى للحلف في ما بعد الانهيار السوفياتي التخلص من عالم القطبية الثنائية، وتعزيز "النظام العالمي الجديد" الاحادي القطبية.

لكن هذا الهدف اختل. صعود الصين وروسيا، وبروز تكتلات مثل "بريكس"، واستمرار تقدم حلف الناتو في اتجاه روسيا جغرافيا، وصولا الى التلاعب الغربي بورقة اوكرانيا، وبالتالي اندلاع الحرب فيها وعليها

الملك الاردني خلال زيارة الى مقر الناتو في بروكسل.

"ذو قيمة عالية"

اعلن الامين العام للناتو يانس ستولتنبرغ في تموز الماضي عن افتتاح مكتب الاتصال في الاردن على هامش قمة الحلف التي انعقدت في واشنطن، قائلا ان "الاردن يعتبر شريكا طويل الامد وذا قيمة عالية بالنسبة لحلف الناتو"، لافتا الى ان مكتب ارتباط الحلف في عمان سيرفع الشراكة الثنائية الى مستوى جديد، مشيرا الى ان الحلف يعمل بشكل اوثق مع شركائه في المنطقة، بما في ذلك الاردن، وان لدى الحلف شركاء مثل العراق، وتونس، وموريتانيا، ودول جوار البحر المتوسط، الى جانب دول الخليج.

اول قمة لحلف الناتو العام 1949.

السؤال: ماذا يفعل الحلف هنا؟

مع روسيا، اظهر مجددا ان الصراع العالمي فتح صفحة جديدة. "مكتب الاتصال" لحلف الناتو في عمان، رغم رمزيته حتى الان، ليس سوى حجر في حركة بيادق الشطرنج هذه.

يتمركز الناتو اردنيا وسط بؤر مشتعلة. فلسطين الى الغرب حيث تقود اسرائيل حرب الابادة، ويتعرض امنها، وربما اساس بقائها، الى الشكوك. ومن الشرق حيث العراق الذي يمتلك الحلف معه تفاهمات تعاون وتدريب، وينظر اليه الغرب من منظور ما يعتبرونه "الخطر الايراني". ومن الشمال حيث سوريا التي اثرت الحرب فيها وعليها طوال الاعوام الـ 13 الماضية على امن المملكة الاردنية. عبدالله الثاني اختار في لحظة الصدام الاقليمي بين ايران واسرائيل في نيسان الماضي ان يفعل انظمته الصاروخية وسلاح الجو من اجل التصدي واسقاط الطائرات والمسيرات التي انطلقت من ايران في اتجاه اسرائيل عندما قررت طهران الانتقام من الغارة الاسرائيلية على قنصليتها في حي المزة في دمشق. من المعتقد ان المملكة سمحت بفتح اجوائها للجهود العسكرية التي قادتها الولايات المتحدة من اجل تأمين جدار دفاعي عن اسرائيل شاركت فيه ايضا بريطانيا وفرنسا.

لهذا، وربما لاسباب كثيرة غيرها، لم تظهر خطوة الناتو في الاردن حسنة النيات بمثل هذا التوقيت، ولا يتمتع الحلف بسمعة طيبة في العالم العربي. الحلف نفسه انخرط في معركة اسقاط نظام العقيد معمر القذافي ليبيا وترك هذه البلاد في خراب كبير. الدول الرئيسية الاعضاء في الحلف، شاركت بنفسها في تدمير واشاعة الحروب في العراق وسوريا واليمن وافغانستان وغيرها.

لهذا ايضا، فان فكرة الناتو في الاردن تبدو مريبة. ويقول خبراء ان بدء اهتمام الناتو بالاردن، وان كان حتى الان عبر "مكتب اتصال"، الا ان هذا التعاون مرشح للتصاعد في السنوات المقبلة. وفي مقابل التمركز الروسي القوي والمباشر في الساحة السورية، هناك الان تمدد هادئ للحلف في المحيط السوري. وهناك تركيا وهي قوة قديمة داخل الحلف، وهناك اتفاق تعاون مستحدث مع العراق، وهو تعاون قد يتعزز في حال تواصل مسار احتمال انتهاء مهمة القوات الاميركية والغربية الاخرى في العراق، فيكون الناتو بديلا. اما اسرائيل، فانها من بين اوائل الدول التي صنفها الناتو كدول حليفة من خارج الحلف، هي صفة تتمتع بها ايضا اليابان ◄

"الناتو" والعرب

يرتبط حلف الناتو مع 4 دول خليجية بما يسمى "مبادرة اسطنبول للتعاون"، وهي الامارات والكويت وقطر والبحرين، كما تشارك عُمان والسعودية في بعض انشطة المبادرة التي تم الاعلان عنها العام 2004.

المبادرة تركز على التخطيط الدفاعي واعداد الميزانية الدفاعية ومكافحة الارهاب ومنع انتشار اسلحة الدمار الشامل، وكذلك ضمان الجاهزية المدنية.

بعثة الناتو في العراق توصف بانها "بعثة غير قتالية"، وتقوم بمهمات منذ العام 2018 لاصلاح القطاع الامني ومؤسساته.

اما مبادرة "الحوار المتوسطي" فقد انطلق عام 1994، وهدفه "المساهمة في الامن والاستقرار الاقليميين، وتحقيق تفاهم متبادل افضل، وتبديد اي مفاهيم خاطئة حول حلف الناتو".

انضم عدد من الدول العربية الى المبادرة، هي مصر وموريتانيا والمغرب وتونس والاردن والجزائر، وتتواجد اسرائيل كذلك في هذا الحوار.

من قمة الناتو الاخيرة في واشنطن.

وكوريا الجنوبية واوستراليا ومصر.

لكن المخاوف الاكبر تتعلق بمعاني هذا التمركز، واما اذا كان الارتباط بالاردن، هو للحؤول دون تعرض المملكة لتهديدات اقليمية اخطر في حال وقعت مواجهة كبرى، لو لتعزيز دور الاردن، ليكون قادرا على تكرار تجربة نيسان الماضي بفعالية اكبر.

بدا اعلان وزارة الخارجية الاردنية ان فكرة اقامة مكتب اتصال للناتو في الاردن، اتفق عليها في قمة الحلف في ليتوانيا في تموز العام 2023، اي قبل حرب غزة، وكأنه محاولة من عمان للتأي بنفسها عن اي شبهة تربط الخطوة "الاطلسية" بتداعيات "طوفان الاقصى".

تشعر الحكومة الاردنية بالضغط على مستوى الشارع الاردني الذي يشعر بالغضب بازاء استمرار الحرب الاسرائيلية على الفلسطينيين، وهم من ليسوا فقط جيرانهم، وانما من عائلاتهم وابنائهم واقاربهم، ويتعرضون الى ابشع حملة قتل شاملة امام شاشات العالم ووسائل التواصل والبث الحي. لكن ليس من الواضح كيف يمكن لخطوة الناتو ان تجلب اطمئنانا للاردنيين، دولة ونظاما.

من قمم حلف وارسو.

المشككون في الخطوة "الاردنية - الاطلسية" يستعيدون حقيقة ان الحكومة الاردنية مرتبطة بالفعل ومنذ سنوات بعلاقات تعاون عسكرية وثيقة مع الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا، وهي دول تمتلك تمركزا عسكريا، الجزء الاكبر منه، يبدو سريا، على اراضي المملكة وحتى في محطيها الاقليمي، كما في التنف السورية مثلا، او في عين الاسد العراقية، ومن جهة اسرائيل ايضا.

لكن خلاصة المشهد في كل الاحوال، كما يقول مراقبون، ان الخطوة الاردنية تبدو انغماسا في معادلة الصراع الدولية، والاكثر خطورة انها قد تكون مؤشرا على ان المنطقة مرشحة لصدام كبير. بعض مظاهر القلق عبّر عنها اردنيون بأن الناتو الذي من ضمن ادواره التعاونية مع المملكة، ما هو مرتبط بادارة ازمات انسانية، قد يكون جزءا من جهود دولية يجري الاعداد لها لاحتواء موجات من اللاجئين الفلسطينيين مع تزايد تضييق حكومة بنيامين نتنياهو عليهم خصوصا في الضفة الغربية المحتلة المحاذية لحدود المملكة، وجعل الاردن وطنا بديلا.

لهذا يمكن القول ان المخاوف التي تثيرها خطوة الناتو متعلقة بـ:

- تعديل قواعد الاشتباك وتوازناتها في المنطقة.
- اندلاع صراع كبير مع ايران في المستقبل القريب.
- اقرار من الحلف باهمية استقرار الاردن على "الحدود" الشرقية لاسرائيل.
- ترسيخ الحلف لنفوذه خارج نطاق حضوره التاريخي.
- احتواء الدور الروسي والصيني المتزايد اقليميا.
- توفير اسناد اضافي للكيان الاسرائيلي مستقبلا.

في الخلاصة، ان المملكة الاردنية تقع في قلب اللهيب الاقليمي المشتعل ما بين العراق وسوريا والسعودية وايران وفلسطين المحتلة ولبنان ومصر، ومجيء الناتو اليها الان، لا يمكن ان يكون مجرد صدفة.